مجلة العلوم الإنسانية العدد 28 - ديسمبر 2007، المجلد أ، ص.ص 23 - 39

التفاعلات الاجتماعية بين عناصر النظام المدرسي الإنسانية ودورها في إحداث الإصلاح المدرسي

ملخص

هدفت الدراسة الحالية إلى تقديم تصور للإصلاح المدرسي يقوم على بيان دور التفاعلات الاجتماعية بين العناصر الإنسانية الأربعة للنظام المدرسي (المعلمين والمدراء والمتعلمين وأولياء أمورهم). ولبناء هذا التصور في ضوء الدراسة النقدية للواقع المدرسي كنظام، اعتمد الباحثان المنهج الوصفي التحليلي. حيث توصلا إلى تقديم تصور يؤكد على أن الإصلاح المدرسي يجب أن يبدأ من داخل المدرسة لا من خارجها (Improving schools from within). من خلال إصلاح العناصر الإنسانية الأربعة التي يشكل الانساج بينها اللبنة الأساسية للنظام المدرسي، لما لطبيعة التفاعلات الاجتماعية من دور فاعل في بناء الثقة بين تلك العناصر، الأمر الذي يؤدي إلى سواد العلاقات القائمة على التفاهم والتعاون والاحترام المتبادل وتقدير كل عنصر منها لدور الآخر. وقد أوصى الباحثان ضرورة التأكيد على تحقيق الانسام بين عناصر النظام المدرسي الإنسانية الأربعة وتفعيله بشكل دائم: لأن مشروعات الإصلاح المدرسية الحقيقية ينبغي أن تستشر بالإنسان أولا وأخيرا.
قال تعالى(**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**)(الرعد: 11)

د. سميح محمود الكراسنة
د. تيسير محمد الخزاعلة
قسم المناهج والتدريس
كلية التربية
جامعة اليرموك – الأردن

Abstract

The purpose of the present study was to introduce a vision for the school reform based upon the interactive relationships among the human parties(i.e., teachers, learners, principals, and parents) concerned with the schooling system. To formulate such vision, empirical and theoretical studies and conferences papers related to school reform projects were critically analyzed. Following such analysis, the researchers emphasized that reforming school should start from schools themselves. In conclusion, the researchers recommended that actualization of such vision will be through ensuring harmonious as well as trustworthy relationships among human parties involved in school work.

إن التجديد والإصلاح في قطاعات المجتمع المختلفة أمر سعت المجتمعات وما تزال إلي تحقيقه لأسباب متعددة. وحتى في غياب الأسباب التي تستلزم إصلاح الواقع المجتمعي، فإن رغبة الأفراد والجماعات في التطوير والتجديد مسألة تمليها ظروف موضوعية محددة قد ترتبط بتغير عاملي الزمان أو المكان، أو أية مستجدات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو تكنولوجية على الصعيدين الإقليمي أو العالمي.

ولا ينأى قطاع التربية والتعليم بنفسه عن حركات الإصلاح وجهود التجديد التي تسعى إلى تحسين النظام التعليمي أو تطويره والرفع من سويته حتى يغدو قادرا على تزويد الأجيال المتعاقبة من المتعلمين بكل ما هو نافع وصالح من المعارف والمهارات والخبرات

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2007.

والقيم لتعلم الحياة ككل بشكل مستدام. ومشاريع الإصلاح وجهود التجديد في قطاع التعليم تتمثل بالإصلاح المدرسي الذي غدا تجربة إنسانية عامة تنشغل بها نظم تربوية عديدة في العالم وخاصة في عصر العولمة الذي أفرزته ثورة المعلومات والاتصالات التي حولت العالم المترامي الأطراف إلى قرية صغيرة (Global Village). فما يحدث في نظام تربوي في بلد معين قد يحمل انعكاسات سلبية أو إيجابية على النظام التربوية في البلاد الأخرى. وها نحن اليوم نشهد ما يسمى بالاقتصاد العالمي (World Economy) الذي شرعت في ضوئه كثير من النظم التربوية العالمية إلى التسابق في إجراء الإصلاحات في مدارسها، لإعداد أجيال من المتعلمين مزودة بالمعارف والمهارات والاتجاهات والكفايات الحاسوبية اللازم لتمكينها من أن تضمن مكانا متقدما في قطار التقدم التكنولوجي السريع سعيا للوصول إلى تحقيق القدرة على التنافسية في سوق العمل العالمي.

وتربية الفرد "إنسان الأمة" مسألة بغاية الأهمية، أكدت عليها كل النظم التربوية لدى الأمم الحية والواعية لحاضرها ومستقبلها. والشواهد التاريخية على قدر النظم التربوية على الرقي بالأمم والجماعات والنهوض بها كثيرة. ففي الوقت الذي كان فيه العرب قبل الإسلام يغرقون في غياهب الجاهلية وظلماتها، أصبحوا قادة ينيرون الدرب للعالمين بفضل من الله سبحانه وتعالى، ثم بفضل مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم التي جسدت تعاليم الرسالة التي أوحيت إليه لإتمام مكارم الأخلاق ونشر الفضيلة، فهذا قول رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: (يرفع العلم ويظهر الجهل والفتن): وقوله: إنما بعثت لإتمم مكارم الأخلاق، وكذلك دعاؤه: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع). ثم هذا قول علي بن أبي طالب كرم الله وجه الذي يؤكد على أهمية إعداد النشء بشكل يمكنه من التعامل مع متطلبات الحاضر ومن استشراف المستقبل. ففي قوله "علموا أبناءكم لزمان غير زمانكم" رؤية تربوية واعية لأهمية أن لا تقتصر الغايات والأهداف التربوية على الآنية بل ينبغي أن تتعداها إلى المستقبل، حيث ينبغي أن تركز النظم المدرسية على تزويد الأفراد بخبرات تعلمية نافعة ومناسبة للمستقبل، كما يتوجب عليها أن تعيد صياغة او تخطيط نظمها التعليمية بشكل ينسجم وقراءات المستقبل والتعامل معه (Virtual Reality).

والشاهد الآخر ينطلق من المسلمة القائلة بأن بناء الأمم وبقائها وتقدمها وإصلاح أحوالها في الميادين الحياتية المختلفة يبدأ من التربية (,Dewey).

فبعد هزيمة كل من اليابان والمانيا في الحرب العالمية الثانية شرع الخبراء التربويون فيهما بدراسة النظم التربوية القائمة لتشخيص نواحي القوة للتعويل عليها، ونواحي الضعف فيها لإصلاحها. وقد أوصلتهما نظم التربية القائمة على استثمار الموارد العادية ورأس المال البشري، إضافة إلى توظيف التكنولوجيا خلال فترة نصف قرن أو اكثر قليلا إلى مستويات رفيعة من التقدم الحضاري والتفوق التكنولوجي يشهد بها الجميع.

وما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية شاهد أكيد على قدرة النظم التعليمية على النهوض بالأمم والانتقال بها من واقع العجز والعطالة وتدني الفاعلية إلى واقع التقدم والرقي والتنافسية. ففي العام 1959 فأجا ما كان يسمى الاتحاد السوفياتي سابقا الولايات المتحدة بغزو القضاء في مركبة ال Sputnik. ونتيجة لذلك شرعت الولايات الأمريكية بمراجعة وتشخيص نظمها التربوية وتطوير وإصلاح برامجها المدرسية مركزة على الرياضيات والفيزياء والمواد العلمية الأخرى. وقد أثمرت جهود الإصلاح والتطوير التعليمية عن تمكن الولايات المتحدة من الهبوط بمركبة فضاء مأهولة على سطح القمر عام 1969.

وهكذا ، فإن الأمم الحية الواعية لحاضرها والمستشرفة لمستقبلها تلجأ إلى إصلاح نظمها التعليمية المدرسية حين تشعر بتدني مستويات الفاعلية والإنتاجية لدى إنسانها.

ومن هنا فقد جاءت فكرة الدراسة الحالية من الإيمان بضرورة الإصلاح بعد تقديم تشخيص شمولي لطبيعة الواقع المدرسي كتنظيم اجتماعي لأجل وضع تصور يعبر عن رؤية شخصية لواقع الإصلاح المدرسي وسبله في مدارس اليوم، حيث يقوم هذا التصور على فكرة أساسية تتمثل في تكوين فهم واضح لأدوار العناصر الإنسانية الأربعة للنظام المدرسي، والتأكيد على ضرورة تحقيق الانسجام بينها، وعلى التأكيد على أن الإصلاح المدرسي ينبغي أن يأتي من داخل المدرسة وليس من خارجها إيمانا من الباحثين في أن التربية هي عملية إنسانية أهم ما فيها العنصر الانساني.

مشكلة الدراسة وهدفها:

في ضوء خبرات الباحثين بالنظام التعليمي، وبعد مراجعة أدبيات الإصلاح التربوي والإصلاح المدرسي بشكل خاص تبين للمؤلفين أن مداخل الإصلاح متعددة ومتنوعة بتنوع الأهداف والغايات التي وجدت من أجلها المدرسة في المجتمعات الانسانية المختلفة فمنها ما انطلق من تغيير المناهج المدرسية أو إعداد المعلمين وتأهيلهم ومنها ما تبنى تغيير الخطط الدراسية وتصميم التدريس، أو إعادة تشكيل البنية التحتية للمدرسة وتنويع مصادر وتقنيات التعلم المختلفة، ومنها ما أكد على إصلاح الإدارة المدرسية، أو إشراك المجتمع بعناصره ورموزه المختلفة، ومنها ما قام على الدعوة إلى حوسبة للتعليم. وجهود الإصلاح المبذولة وفقا لهذه المداخل تأتي انساما مع التطور والتغيير التربوي في مختلف مدخلات العلمية التربوية. وبطبيعة الحال، لا يكون الإصلاح المدرسي فمالا إذا اقتصر على تحسين شكل الممارسات أو الفعاليات التربوية دون مضامينها، أو على موجودات المبنىالمدرسي وتسهيلاته، وإنما تكون فعاليته في منهجية التعلم في المدرسة والمضامين الفكرية للمناهج الدرسية من خلال الاهتمام بمخاطبة عقل المتعلم وليس ذاكرته، ومن خلال إعداد المعلم القادر على مساعدة المتعلم ليكون مبدعا يتعلم كيف يفكر وليس ماذا يحفظ (بدران، 2005). وهكذا فالمعنى الأكثر توافرا في الأدب التربوي للإصلاح المدرسي هو السعي الؤوب لتحقيق افضل النتاجات التعلمية. فهل لو تم تبني جميع مداخل الإصلاح المدرسي المذكورة آنفا، هل سيؤدي ذلك إلى إصلاح تربوي حقيقي يسهم في تحقيق أفضل النتاجات

التعليمية؟.

وإجابة هذا السؤال تنطلق من اعتقاد الباحثين الذي قامت عليه الدراسة الحالية المتمثل في التاكيد على صلاح الإنسان الذي يجب أن يبدأ الإصلاح المدرسي وينتهي به. فهل العناصر الإنسانية القائمة على المدرسة والمنخرطة بها صالحة ومنسجمة مع بعضها البعض تسود بينها روح الزمالة والثقة القائمة على الاحترام المتبادل بشكل يتيح المجال إلى تحقيق الإصلاح المدرسي الحقيقي؟ حيث إن الإصلاح المدرسي يأتي من داخل المدرسة نفسها (Improving Schools from Within) من خلال صلاح عناصرها الإنسانية، لذا، فإن الهدف من هذه الدراسة هو تقديم تصور يقوم على بيان دور التفاعلات الاجتماعية بين العناصر الإنسانية الأربعة (المعلمين والمدراء والمتعلمين وأولياء أمورهم) في تحقيق الاصلاح المدرسي.

منهجية الدراسة:

تم اعتماد المنهج التحليلي القائم على دراسة نقدية للعديد من الدراسات والتقارير الصادرة عن بعض المؤسسات التربوية الرسمية في عدد من البيئات والدول في العالم والمتعلقة بمشروعات الإصلاح التربوي بشكل عام والاصلاح المدرسي بشكل خاص، حيث تم الوقوف على عدد من القضايا والموضوعات المرتبطة بواقع الإصلاح المدرسي شملت الأهداف، المداخل والتطلعات المستقبلية والتحديات التي تواجه الإصلاح المدرسي والحلول المقترحة لمواجهتها، كما تم الاطلاع على بعض نماذج الإصلاح المدرسي الناجعة في عدد من دول العالم. بالإضافة إلى انه قد تم الاعتماد على اتصلات الباحثين الشخصية وماقشاتهم مع عدد من القائمين على النظام التعليمي والمنخرطين به حول طبيعة العلاقات القائمة بينهم.

واقع المدرسة كنظام ومبررات الإصلاح:

يلاحظ من الأدب التربوي المتعلق بالإصلاح المدرسي (School Reform) أن فشل المجتمعات يعزى إلى عجز المدرسة عن القيام بدورها. مع أن الأمر (فشل المجتمعات) قد يكون مرتبطا بتقصير المجتمع نفسه بمؤسساته الثقافية والإعلامية والتربوية الأخرى عن أداء أدوارها تجاه المدرسة، بحيث يصل الحال أحيانا إلى حد التصادم أو الصراع بين ما تسمى المدرسة إلى تحقيقه من غايات نبيلة وقيم فاضلة وغرسها في نفوس وعقول وقلوب الأجيال، وما تقوم به بشكل عفوي أو مقصود مؤسسات أو جهات مجتمعية أخرى. فدور المجتمع بمؤسساته المتعددة في الإصلاح المدرسي دور تبادلي تكاملي مع المدرسة كمؤسسة اجتماعية يسود فيها العنصر الإنساني. والتربية بكليتها عملية تفاعل إنسانية تجسد فيها الحقوق والواجبات بحرية تؤدي إلى الأداء الفاعل للأدوار. وهذه النظرية الكلية للتربية تقتضي فهم المدرسة كمؤسسة اجتماعية تؤدي رسالة إنسانية، أو نظام اجتماعي متكامل العناصر يهدف إلى بناء الحياة الإجتماعية للأفراد بالشكل الذي ينسجم مع فلسفة المجتمع وتوجهاته التي تسعى إلى تحقيق التنمية الشاملة المستدامة بجميع جوانب الحياة. وأن المهمة الملقاة على كاهل المدرسة كتنظيم اجتماعي تعكس المسؤولية الجماعية لجميع العناصر العاملة

في المدرسة؛ فكل عنصر مؤثر في العمل المدرسي، وان عدم أخذ جميع الأدوار في الاعتبار أو الاستغناء عن بعضها يؤدي إلى الاخلال بالعمليات الخاصة بهذه المؤسسة. فالمسؤولية عن الضعف في التحصيل والأداء أو فشل الطلاب في مشوارهم التعلمي مسؤولية جماعية لا تقتصر فقط على المعلم وتقصيره في أداء دوره، وإنما قد تشترك فيها جميع الأطراف العاملة في المدرسة بشكل مباشر أو المشرفة عليها بشكل غير مباشر. فصلاح المدرسة بصلاح إنسانها وفسادها بفساده. أما دور المدرسة الإصلاحي فتقوم به من خلال تبني مشاريع الإصلاح التي تشخص الواقع التربوي وبيناته المختلفة، وتحديد الحاجات والأولويات، والبحث عن مواطن الضعف القصور فيها وعلاجها ومن ثم إصلاحها. فالمدرسة إن صلحت صلح المجتمع كله، وإن فسدت فسد المجتمع كله.

وبالرغم من قناعة الباحثين وإقرارهما بأهمية ومحورية مداخل الإصلاح المتعددة وجدوى تبنيها في مشاريع الإصلاح المدرسي، الا انهما يتساءلان عن مدى نجاحها أو تأثيراتها الحقيقية في إحداث الإصلاحات الشاملة في النظاك المدرسي، والتي لن تتحقق إذا لم ينتج عنها إنسان الأمة الصالح. والحقيقة أن المصدر الرئيس لهذا التساؤل هو ما عبر عنه الكثير من القائمين على النظام المدرسي للباحثين في حواراتهما الشخصية حول طبيعة العلاقات القائمة بين العناصر الإنسانية في المدرسة، حيث أشارت في معظمها إلى وجود أزمة ثقة في العلاقات بين هذه العناصر. لذا، فإن القناعة الأرسخ لدى الباحثين حول مدى نجاح مشروعات الإصلاح المدرسية، أو تقصيرها في إحداث التغييرات الإيجابية المنشودة يكمن في فقدان حلقة أساسية في نسيج الإصلاح التربوي الشامل تتمثل في فقدان الإطار المفاهيمي (Lost Paradigm) الذي يجسده غياب الانسجام الوجداني لدى العناصر الإنسانية للنظام المدرسي حيث إن أساس هذه القناعة تنطلق من طبيعة الفهم للمدرسة كنظام اجتماعي تربوي إنتاجي من أهم مدخلاته العناصر الإنسانية متعددة الوجبات والمسؤوليات؛ فلكل عنصر من عناصر هذا النظام دوره الذي يحدد نجاحه مدى اشباع حاجات هذه العناصر واحترام اهتماماتهم ورغباتهم وقدراتهم. وتنسجم هذه القناعة للباحثين مع ما أشار إليه بوفلجة (1994) من أن أي تنظيم اجتماعي يتكون من عناصر تتفاعل فيما بينها لتحقيق أهدافه من خلال التعاون والاحترام المتبادل بين عناصره التي تنظم العلاقات والأدوار والوجبات بينها بتنسيق ونسق اجتماعي انساني عالي الجودة.

فالمدرسة كمؤسسة اجتماعية لها بعد إنساني في الإدارة والتنظيم والعمل يتم بالمرونة والشمولية ويقوم على الثقة والاحترام المتبادل وسواد روح المؤسسية والانساج بين عناصره الإنسانية. إذ أن عدم الانسجام والتوافق بين تلك العناصر يؤديان إلى التناقض الذي قد يصل إلى حد التصادم بينها؛ الأمر الذي يؤثر سلبا على سير عمل المدرسة ويعيقها عن تحقيق أهدافها. لذلك فإن المؤلفين يريان في معالجتهم وطروحاتهم الفكرية لموضوع الإصلاح المدرسي أن صلاح المجتمع يتأتى بإصلاح المدرسة التي

ترفد قطاعاته بأفراد متعلميين متمرسين ومؤمنين صالحين. كما يؤكدان على أن مشاريع الإصلاح تنجح بشكل اكبر إذا كانت بواعث الإصلاح تنبثق من داخل المدرسة (Improving Schools from within) ومن مبادرات وقناعات وجهود القائمين عليها والعاملين فيها (Hess 1991 and Barth1990). وبطبيعة الحال، فإن ما بداخل المدرسة يتمثل بالتفاعلات الاجتماعية التي تجري بين العناصر البشرية الأربعة التي تشمل المعلمين والإداريين والمتعلمين وأولياء أمورهم؛ حيث توثر طبيعة العلاقة السليمة القائمة على الثقة والاحترام المتبادل بين هذه العناصر الأربعة للنظام المدرسي على الغاية السامية التي تجسدها المدرسة حتى تؤدي رسالتها على أكمل وجه. فالانسجام في التفاعلات الاجتماعية بين عناصر المدرسي أمر يسهم بشكل اكبر في تحقيق غايات النظام التربوي العام وأهدافه المتمثلة في تزويد إنسان الأمة بالمعارف والخبرات والكفايات النافعة وتمده بالقيم والاتجاهات الصالحة له وللنشء من بعده. وانعدام الإنسجام في العلاقات الإنسانية القائمة بين عناصر النظام المدرسي البشرية يقلل من فاعلية المدرسة كمؤسسة اجتماعية ويؤثر سلبا على تفعيل الحراك الاجتماعي بداخلها وعلى تبادل تلك العناصر لأدوارها ضمن ذلك النظام؛ وبالتالي التسبب في خلق أزمة ثقة (A Crisis of Confidence) بين هذه العناصر. وهذا الأمر غير المرغوب برأي المؤلفين يستدعي إبراز هذه المسألة والإلمام بها لأجل تشخيصها والعمل على معالجتها وإصلاحها حتى تاخد المدرسة دورها الطبيعي في بناء إنسان الأمة الدي ينهض بمجتمعه وأمته و يساهم في مواكبة التقدم العالمي وركب الحضارة الإنسانية من حوله. يتأتى هدا برأي الباحثين إلا من خلال تبني مشروعات الإصلاح المدرسي الحقيقة والشاملة والصادقة.

وبالرغم من أن الكثير من النظم التربوية في العالم قد شرعت في مشروعات الإصلاح المدرسي، ومن تزايد الدعوات إلى إحداث التجديدات في واقع المدرسة، إلا أن هذه المشروعات وتلك الدعوات لم تول اهتمامها أو تعالج بشكل كاف مسألة أزمة الثقة وغياب روح الزمالة بين أطراف النظام المدرسي البشرية الأربعة التي تكون النسيج الأساسي للعملية التربوية، على الرغم من كونها قضية هامة وحاسمة لإنجاح عمل المدرسة وتنمية فاعليتها.

لذا، فإن هذه الدراسة الفكرية تؤكد على أن جهود الإصلاح المدرسي ومحاولات التجديد التربوي ينبغي أن تكون نابعة من داخل المدرسة من خلال إصلاح وبالتالي صلاح العناصر البشرية الأربعة للنظام المدرسي. والنظرة الحديثة للتربية كعملية ديناميكية متطورة تهدف إلى توفير البيئة التي تساعد على تشكيل الشخصية الإنسانية الاجتماعية لأفراد أي مجتمع، فإن الإصلاح المدرسي يجب أن ينبع من داخل المدرسة من خلال صلاح القائمين عليها، كما هو حال دعوات الإصلاح والتجديد المدرسية القائمة في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان (Cooper, 1999). فالعاملون في هذه بيئة من معلمين ومشرفين وإداريين أكثر قدرة من غيرهم على تفعيل جهود الإصلاح المنشودة الذي ينسجم مع فلسفة المدرسة كتنظيم وكمؤسسة إنسانية

اجتماعية أهم وأسمى ما فيها العنصر الإنساني. والمدرسة كالكائن العضوي الحي ترتبط أجزاؤه معا ربطا عضويا وتتضافر من اجل تحقيق المصالح المشتركة بينها وتلبي طموحاتها وتوقعاتها.

انطلاقا من النظرية الاجتماعية للإصلاح المدرسي التي تقوم على أساس أن المدرسة تنظيم اجتماعي (الحارثي،2003)، واعتبار هذه النظرية مدخلا لفهم الواقع المدرسي الذي سيساعد في فهم الإصلاح المدرسي الشامل، وفي ضوء طبيعة التفاعل القائم بين العناصر الإنسانية لهذه المؤسسة كنظام يلاحظ أن المدرسة تعاني من تنامي حالة من عدم الانسجام والتوافق بين عناصرها البشرية الأربعة المتمثلة بالمعلمين والإداريين والمتعلمين وأولياء أمورهم؛ حيث وصفت المدرسة بافتقارها إلى الجو الاجتماعي القائم على الود والمرح، وفرض جو من الرهبة والخوف والشك والضغط النفسي على عناصرها الإنسانية (Ilberman, 1970). وحديثا وصفت المدرسة بأنها مكان غير محبب، يتفنن فيه الطلاب بالتزويغ والهروب منه، بالإضافة إلى أنها أصبحت مكانا للتغريب والقمع، وأنها تتنكر للحريات وتفشل في معاملة أبنائها معاملة تليق بهم، كما أن ممارسات بعض من بها استبدادية تسلطية ومجردة من الإنسانية (مرسى، 1992 ص، 2 – 3)، ومثل هذا الوضع يجسد تفاعلا اجتماعيا عقيم أو ضعيف يتنافى وروح الروابط الاجتماعية بين البشر، وكذلك يتنافى ومعايير ضبط وتنظيم العلاقات الإنسانية (القيم والمنظومة الأخلاقية) التي تعد المحكات الأساسية التي تدفع العناصر الإنسانية للعمل والتعاون. وهدا كله يجسد نظرة سلبية للعناصر الإنسانية التي تكون هذا النظام – معقد التركيب اجتماعيا-، الأمر الذي ينعكس على فاعلية المشاركة لتلك العناصر وعلى قدرة المدرسة وإنتاجيتها. بل أن وجود هذا الوضع واستمراره يؤدي إلى تشكيل ثقافة اجتماعية خاصة بالمدرسة توجد أزمة حقيقية بين عناصر المدرسة الإنسانية تتمثل باستمرار أزمة الثقة وتفاقمها وتجذرها بالمدرسة مما قد يقتل روح العمل والدافعية للإيجاز. وتتمثل مظاهر هذه الأزمة بشكل عام فيما يلي:

- تناقص إيمان أولياء الأمور والمجتمع بشكل عام بفاعلية المدرسة وقدرتها على بناء الأجيال.
- قلة ثقة أولياء الأمور ورموز المجتمع الأخرى بالعاملين في المدرسة وبالأدوار التي يؤدونها.
- عدم ثقة العناصر الإنسانية العاملة في المدرسة ببعضها البعض والتشكيك بإخلاصهم وأمانتهم في أداء الأعمال المطلوبة.
- انخفاض المعنويات وغياب دوافع العمل لدى العناصر الإنسانية في المدرسة.
- الخمول والاقتصار على تنفيذ الواجبات الوظيفية المدرسية بالحد الأدنى من الأداء.
- اعتماد أساليب التحايل والمراوغة والنفاق الإجتماعي في تعاملات العناصر الإنسانية داخل المدرسة.

- غياب فرص استغلال القدرات والمهارات والكفايات الكامنة لدى كل عنصر من العناصر الإنسانية داخل المدرسة – كل حسب موقعه – بشكل يحقق التعلم المنشود.
- تجاهل الحاجات الإنسانية والمشكلات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية للعناصر الإنسانية في المدرسة.
- ضعف الرضى والألفة والتعاون المتبادل بين العناصر الإنسانية داخل المدرسة نتيجة للتداخل غير المبرر في السهام والأعمال.
- غياب مشاركة العناصر في تصميم وبناء المناهج التي يتم تنفيذها في المدرستن وتجاهل الآراء المهمة المرتبطة بهذه المناهج.
- تدني مستويات التحصيل لدى المتعلمين في الاختبارات المدرسية التي ترتفع فوق مستوى التفكير وفقا لتصنيف بلوم(Bloom, 1956) للمجال المعرفي، الأمر الذي ينعكس سلبا على مستوى التعلم وطبيعته.
- الاقتصار على المجال المعرفي في التعلم وفي مستوياته الدنيا، والتركيز على تزويد المتعلمين بكم كبير من المعارف والمعلومات، مع إغفال مقصود أو غير مقصود لنتاجات التعلم الأخرى المتمثلة بالجانب المهاري (الأداني) والوجداني (القيمي) مما قد يؤدي إلى عدم إكتمال شخصية المتعلم بالشكل المطلوب.
- ضياع فرص الإبداع والنمو المهني لدى العناصر الإنسانية داخل المدرسة.
- انتشار الضحالة أو السطحية أو اللاعمق الفكري لدى خريجي المدارس وضعف أو محدودية قدراتهم على مواجهة وحل المشاكل الحياتية بشكل عام.
- استمرار حالات التسرب من المدرسة وتركها قبل الانتهاء من إكمال مرحلة التعليم الأساسي الإلزامية.
- تضارب القيم والاتجاهات وأحيانا تصادمها أو اختللها بين المتعلمين ومعلميهم وإدارة المدرسة وأولياء الأمور، وهذا يشار إليه في مواقف كثيرة عند الحديث عن الفجوة الثقافية بين الأجيال (Generation or Cultural Gap).

باختصار، إن أزمة الثقة التي تخيم على أجواء المدرسة كمؤسسة اجتماعية تتمثل في عدم ثقة كل طرف من أطراف العملية التعليمية الأربعة(إدارة المدرسة والمعلمين والطلبة وأولياء الأمور) بالآخر، وفي غياب روح الزمالة التي تحتم على كل طرف من تلك الأطراف الأربعة احترام الأخر والعمل معه بروح الفريق في جو يسوده التعاون والتفاعل الإيجابي بمحبة ورغبة حقيقيتين تذوب فيه الذاتية (الأنا) وتحكمه العلاقات الاجتماعية المؤسسية التي تسود فيها الجماعة.

التصور المقترح الإصلاح المدرسي

إزاء هذا الواقع اللامنتج برأي الباحثين، تحاول المدرسة جاهدة مواجهة هذا التحدي المتمثل بأزمة الثقة التي تتجسد معالمها في ممارسات أطراف النظام المدرسي الإنسانية الأربعة وتعاملاتهم في بيئة المدرسة وقبل الشروع بوصف تصورهما للإصلاح المدرسي، يرى الباحثان أن لا بد من الإشارة هنا إلى أن مشاريع الإصلاح

المدرسي العديدة التي تتبناها النظم التعليمية المعاصرة تهدف في الغالب إلى:

- إعادة هيكلة النظام التعليمي القائم لجعله مؤسسيا يسعى إلى تحقيق الحاجات المجتمعية كما ونوعا على المدى البعيد.
- تطوير السياسات التربوية وتحديث الكوادر التعليمية ورفع مؤهلاتها وكفاياتها المهنية لأجل تحسين أدائها بشكل دوري ومستمر.
- الوصول بأطراف العملية التعليمية التعلمية الأربعة إلى مستوى عال من الإدراك لحيثيات العملية التربوية وديناميكياتها والنظر إليها كمشروع حياتي مستمر (Lifelong Learning).
- الربط الإلكتروني للمدارس والتأكيد على الاستخدام الوظيفي لتكنولوجيا المعلومات والتصالات والتعلم الشبكي. أو ما يسمى حوسية التعليم.

وعلى الرغم من إسهامات مثل هذه المشاريع في تحقيق النتاجات التي تؤدي إلى الإصلاح المدرسي وتسهم في تجديده ليتماشى وروح العصر، إلا أنها أغفلت الدور الهام للإنسجام بين العناصر الإنسانية وسواد روح الزمالة والثقة المتبادلة بينها كأساس جوهري لعملية الإصلاح التي تقوم كما يرى الباحثان على عدد من الافتراضات المتمثلة فيما يلي:

- عملية الإصلاح لا تأتي من فراغ، بل إنها تتم في ضوء استشراف قائم على رؤية دقيقة للواقع الثقافي التربوي وإنجازاته وملاحظة القيم والمادات والتقاليد والاجتماعية السائد، فيه واخذ القوى المؤثرة في المجتمع المدرسي في الاعتبار.
- النظر إلى المدرسة على أنها نظام يسعى لتحقيق مصالح مشتركة لجميع العناصر فيها ولتلبية طموحاتهم وحاجاتهم.
- تشخيص كافة أدوار عناصر النظام المدرسي الإنسانية من اجل الوقوع على مكامن الخطر ومواطن الضعف فيها للتمكن من تقديم تفسيرات منطقية للكثير من المشكلات المعقدة التي تعصف بالمدرسة بشكل يومي تربيا. وهذه المشكلات ربما تكون مرتبطة بالمعلمين ر بالمدراء أو بأولياء الأمور أو بالمتعلمين أنفسهم.
- تكامل أدوار العناصر الإنسانية الأربعة أمر هام جدا في تحقيق الإصلاح الشامل في المدرسة. فإذا أردنا تحقيق الهداف المدرسة لا بد من أن تحصل القرارات الصادرة في هذه المدرسة والجهود الواجب القيام بها بناء عليها على الدعم والاهتمام من جميع العناصر بشكل تكاملي؛ وعكس ذلك قد يؤدي إلى المقاومة وعدم الاكتراث وبالتالي فشل تلك القرارات وفشل المدرسة (1994).
- المدرسة مؤسسة اجتماعية تقوم على علاقات قوية تتمثل في التعويل على قيم الكرامة الإنسانية والمساواة بين عناصرها، وعلى توظيف شتى الوسائل الممكنة والإمكانات المتاحة، إضافة إلى إيجاد نوع من التعاون التنسيق الإجابي والثقة المتبادلة بينهم من خلال التوعية بالأدوار والمشاركة الجماعية في التخطيط والتنفيذ لأنشطة المدرسة وقراراتها. وهذا ينسجم مع ما دع اليه كثير من التربويين في رؤيتهم للإصلاح المدرسي (Epstein and Jansom,2004)

- وفقا التصور المقترح للإصلاح المدرسي:

• يمكن لمدراء المدارس القيام بدورهم التربوي والإداري معا من خلال بناء جسور الثقة والتعامل الأخلاقي القائم على احترام الأخرين، وتعزيز ثقة المعلمين بأنفسهم وقدراتهم ورفع دافعيتهم ومحبتهم لمدرستهم من خلال إشراكهم في عملية صنع القرار التربوي المتعلق بالفعاليات التعليمية ذات الصلة بهم بطلبتهم.

• المعلم هو من أهم المدخلات الإنسانية في هذا النظام ودوره جوهري في تحقيق التعلم .

• حتى يمثل هذا الدور بشكل إيجابي، لابد أن يكون نشيطا مبادرا مهتما مبدعا يسعى بشكل دائم مستواه وتحسين معرفته ومهاراته ونموه المهني لكي يحظى بالتقدير الكامل والاحترام والثقة وحسن الظن به، مما يؤثر بشكل إيجابي على ثقته بنفسه وثقة المتعلمين به وسلوكهم داخل الحجرة الصفة.

• المتعلم هو المحور الأساسي من محاور العملية التعليمية وكل ما في المدرسة مسخر لخدمته ومساعدته على النمو والتطور، مما يعني إعادة فهم دوره ووضعه في جو اجتماعي أخلاقي وتربوي خاص تتشكل معالمه من واقع حاجته وقدراته وطموحاته.

• معرفة أولياء الأمور بأهداف المدرسة وإشراكهم بأهم ما يدور فيها أمر بالغ الأهمية في إنجاح العملية التربوية بشكل عام. إذ أن معرفة الأسرة لبرامج المدرسة وتقبلها لها يؤدي دعمها لهذه البرامج وتعزيزها؛ وبالتالي الإسهام المباشر في التأثير على التعلم بشكل إيجابي فأولياء الأمور يفضلون إلحاق أبنائهم بالمدارس التي تتيح لهم فرص المشاركة في البرامج الدراسية وتصميم الخبرات كما أكد ذلك الخطيب والخطيب(2003) في تصورهما للمدرسة المجتمعية وتعليم المستقبل.

وهكذا، فإن هذا التصور يؤكد على تحقيق التواصل بين العاملين في المدرسة وسواد روح الزمالة بينهم، مما يسهم في خلق مجتمع المتعلمين(ommunity of Learners) الذي يشعر كل واحد فيه انه متعلم مدى الحياة (lifelong Learner)، لأن التعلم لا يتحدد بزمان أو بمكان أو بأشخاص بعينهم، فالتعلم للجميع والجميع معني فيه يعلم ويتعلم (سنقر، 2005).

وفي ضوء الوضع القائم يرى المؤلفان بأن الإصلاح المدرسي لن يتم إلا إذا كان نابعا من داخل المدرسة وليس من خارجها كما هو الحال أحيانا عندما تكون الأصوات المطالبة بالإصلاح والمشجعة عليه والداعمة له لا تنتمي إلى الوقع التربوي؛ كالقطاعات الصناعية والتجارية والشركات العالمية التي تسعى إلى الترويج لمنتوجاتها وتسويقها في المدرسة باسم الإصلاح. فالمطلوب هذا الفهم العميق القائم على وضوح غابات الإصلاح المدرسي ونبلها، وعلى تحديد الحاجات والأولويات اللازمة لتقويم وتصحيح وإعادة بناء جسور القثة والاحترام المتبادل بين العناصر الإنسانية التي قامت المدرسة أصلا كمؤسسة اجتماعية على أساسها. إلا أن واقع المدرسة الحالي غير المنسجم مع تلك الغابات والأهداف النبيلة. ونتيجة لتراكم الخبرات والمواقف السلبية

بين العناصر الإنسانية فيها أدى إلى ضياع النموذج الأخلاقي الذي هو روح المدرسة التي تشمل الدافعية نحو العطاء والنجاح مما يولد الثقة بالنفس التي بدورها تؤدي إلى الثقة بالآخرين وتقدير جهودهم. فالمدرسة إذن تحتاج إلى التأكيد على التفاعل الإيجابي بين العناصرالإنسانية الذين هم أصحاب العلاقة المباشرة بالإصلاح وتحسينه باستمرار؛ فهم الغاية وهم الوسيلة. والإصلاح المدرسي ينبغي أن يقوم على السعي الدؤوب لتغيير واقع المدرسة الحالي من خلال تغيير مدارك الأفراد وممارساتهم فيها وجعلها متمحورة حول العنصر الإنساني.

إن سواد روح الزمالة بين العاملين في المدرسة يؤدي إلى خلق بيئة تعلمية تعلمية مناسبة تقوم فيها العلاقات الإنسانية على أسس من الاحترام والثقة المتبادلة بحيث يحترم فيها المعلم المدير ويعينه على إدارة المدرسة، ويثني المدير على المعل ويدفعه للمزيد من العطاء والتفاني في تعليمه للنشء. كما يعامل كل من المدير والمعلم الطلبة في المدرسة بالإحترام الذي يولد لديهم إحساسا بالمسؤولية نحو أنفسهم وشعورا بالرغبة في التميز في تحصيلهم الدراسي، ويسهم في تعزيز قدراتهم على بناء شخصية واعية ومعطاءة وقيادية مستقلة وقادرة على إدارة شؤونها بذاتها.

وهكذا، فإن مما لاشك فيه انه عندما تغلب مشاعر الثقة والاحترام المتبادل البيئة المدرسية، تتولد لدى العاملين فيها مشاعر المحبة لبعضهم بحيث يعملون في المدرسة بروح الفريق مما يكون له انعكاسات إيجابية على الأداء لكل منهم تتمثل برفع فعالية المدرسة وانتاجيتها؛ فالأفراد يميلون إلى بذل المزيد من الجهد والعطاء عندما يعملون في جو تسوده الألفة والمحبة والانسجام يصغي كل منهم للآخر ويأخذ بنصيحته واقتراحاته أو ملاحظاته بكل أريحية وبشكل جاد، ويسمو كل واح فيهم في فكرة وممارساته فوق الشخصنة إلى مستوى المؤسسية.

أيضا، إن بناء بيئة مدرسية قائمة على علاقات إنسانية واجتماعية صادقة بين العاملين فيها يجعل تلك البيئة بوثقة ينصهر فيها العاملون الصادقون المخلصون والمتفانون وذوي النوايا الطيبة. وتغيب عنها أو تتكشف العناصر غير الصادقة والمخلصة والقادرة على القيام بمهامها وغير الطيبة في نواياها. وفي هذه البوثقة تستمر الأطراف الخيرة الصادقة المتحابة الواثقة فيما تقوم به بمحاضرة العناصر غير المخلصة وغير المؤهلة أو الفاشلة في أداء مهامها حتى تلفظها خارج جسم المدرسة التي لا مكان فيها إلا للمتحابين الصادقين في عملهم وعطائهم، إذ عندما يخيم على مناخ المدرسة جو من الثقة والاحترام المتبادل بين العاملين فيها، لا يستطيع الذي ليس له لديه ثقة بنفسه وبقدراته وبالآخرين أن يستمر في العمل في ذلك الجو، وكثيرا ما ينسحب من تلقاء نفسه لأن جو المحبة والثقة والزمالة القائمة على الاحترام المتبادل لا مكان فيه للمتخاصمين أو المتباغضين واللامتفاهمين.

وعلى الرغم من أن الكثيرين ممن يشرفون على النظام التربوي أو يقومون عليه قد لا تروق لهم فكرة منح الطلبة والمعلمين الثقة لقيادة أنفسهم بأنفسهم وتفويضهم الصلاحيات داخل المدرسة، وقد يذهب البعض منهم إلى أن يهزأ من هذه الفكرة

لاعتقادهم بأن المعلمين والطلبة غير أهل للثقة وغير قادرين على إدارة أنفسهم بأنفسهم وهم بحاجة دوما إلى من بوجههم ويشرف عليهم في كل صغيرة وكبيرة داخل بيئة المدرسة، إلا أن الباحثين يريان غير ذلك. فهما يصران على أن مسألة منح الثقة للعناصر الإنسانية في المدرسة وجعلها أساسا للتعامل فيما بينها أمر بغاية الأهمية يتوقف عليه نجاح النظام التربوي بكليته لدى أية أمة. فحتى لو كان بعض المعلمين والطلبة وحتى بعض أولياء الأمور غير أهل للثقة بحيث لا يمكن إشراكهم في صناعة وتركيب خيوط النسيج التربوي، يمكن منحهم جرعات من الثقة وتفويضهم بعض الصلاحيات التي قد تعزز ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم وتكسبهم ثقة الآخرين. وهذا بحد ذاته يسهم إلى حد كبير في تشييد بناء تربوي قاعدته المحبة الصادقة وأعمدته وأركانه الرغبة الأكيدة في العمل والتفاني فيه وسقفه السعي نحو التميز وتحقيق مستويات عالية من الإتفاق والفاعلية. إذ عندما يستقبل العاملون في بيئة المدرسة والدارسين فيها التوجيهات والتعليمات من المسؤولين عنهم او مرؤوسيهم بصدر رحب وبكل أريحية ويأخذون بها بكل جدية تتحول هذه التوجيهات أو التعليمات إلى معززات أو دوافع داخلية ذاتية محبوبة لدى النفس البشرية تحثهم على مزيد من البذل والعطاء ورفع سقف الإنتاجية للمدرسة التي تحكمها إرادة الحب وعلاقات الاحترام في جو مؤسسي تتسامى فيه الغايات حتى تصبح المؤسسة وتحقيق النجاح لها أعلى من النجاحات الفردية مثلما هو الحال في كثير من النظم التعليمية في العالم كالنموذج الصيني والياباني والألماني والأمريكي وغيرها من الأمم الواعية التي حينما تحس بأزمات معينة أو قصور أو خلل في قطاعات معينة من قطاعات المجتمع أو في جوانب الحياة، تبادر إلى تشخيص النظم التربوي بجوانبها الثلاثة المعرفية والمهارية والوجدانية (القيمية) لعلاج السقيم أو الغث واجتثائه وتنمية الصحيح أو السمين والتأكيد على بقائه واستمراره لأجل أصلاح الواقع التربوي بكافة عناصره، وإحداث التجديد فيه حتى يتحقق المعنى الكبير "للتربية" المتمثل بتعلم الحياة ككل متكامل وينقل التراث بشقيه العادي والمعنوي من جيل إلى جيل بشكل سليم يضمن التقدم والرقي والقيادة للأمة.

وحتى تتوافر فرص النجاح والفاعلية لهذا التصور المقترح للإصلاح المدرسي كما يراه الباحثان، لا بد من التأكيد على مراعاة الأمور التالية:

- ضرورة تشخيص نقاط القوة والضعف في النظام المدرسي القائم، وتحديد الحاجات والأولويات ووضع الأليات اللازمة للإصلاح والتطوير من خلال فحص كيفية التفاعل بين العناصر الإنسانية ذات العلاقة بالإصلاح مثل مشاركة أولياء الأمور وأساليب الإدارة وخلفيات الطلبة المعرفية ومشاركة المعلمين.
- توعية العناصر الإنسانية بالمدرسة بأهمية العلاقات فيما بينها وتعريفهم بالعوامل التي تسهم في بناء علاقات شخصية صحية واكتساب المهارات اللازمة لتطوير مثل هذه العلاقات (Wagner, 2001).

- تفعيل المشاركة المجتمعية للمدرسة من خلال إشراك الأسرة والأطراف الاجتماعية المؤثر بأنشطة المدرسة والمتأثرة بها إحساس كل طرف بالمسؤولية تجاه الآخر.

- ضرورة توعية جميع العناصر الإنسانية بالمدرسة بما هو متوقع منها، وتعريفها بالنتائج المترتبة على عدم تحقيق تلك التوقعات.

- توظف والأساليب الإستراتيجيات والأنشطة التدريسية القائمة على العلاقات الإنسانية والتواصل الاجتماعي في غرفة الصف وخارجها.

- وأخيرا، ضرورة الاعتماد على إجراء البحث العلمي التربوي - والإجرائية منه على وجه (Action Research)- لإيجاد الحلول العملي المناسبة للمشاكل التي تواجه النظام التربوي.

مقتطفات مما قاله بعض المفكرين حول النظام التربوي العربي والحاجة إلى الإصلاح المدرسي الحقيقي فيه

في سياق المعالجة الفكرية لموضوع الإصلاح المدرسي كمشروع إنساني عالمي، يعتقد الباحثان أن لا ضير من الإشارة في هذه الدراسة ولو بشكل مقتضب إلى بعض ما قيل حول واقع النظام التربوي العربي الذي غدا بأمس الحاجة لإحداث الإصلاح المدرسي الحقيقي فيه الكيلاني (2005) في سياق حديثه عن أهمية المراجعة المستمرة والتقييم الدوري للثقافات والنظم التربية السائد لدى الأمم آن:

"كل بلد نجح في الخروج من أزماته ومجابهة تحياته بدأ بفحص النظم التربوية والثقافة السائدة. وما نجح حزب أو منظمة أو دولة في برامجها إلا بعد اعتماد مبدأ المراجعة والتقييم الدوري لمبادئها وأفكارها. (ص 14).

ويتابع الكيلاني قوله من التصرف:

"يشير البحث الأولى في نظم التربوي والثقافة السائدة في الأقطار العربية إلى أنها تخرج أيام السلم سجين ثقافة الصمت والتلقين تنفيذ الأوامر والعزلة عن الأحداث والجري وراء الولاءات العصبية والاهتمامات اليومية التي تدور حول الغذاء والكساء - والموضات – وتكديس الأشياء ولكنه حين يفاجأ بالأزمات والتحديات يواجهها بالانفعال وردود الفعل الثقافية، ويشتغل بمعالجة وراق الأزمة – بشكل سطحي غير عقلاني، وربما متابعة الآخرين على شاشات التلفاز يبحثون في مضاعفاتها لحلها على طريقتهم – ويغفل عن جذورها الضاربة في النفوس، الممتدة في المفاهيم، والتقاليد والعادات، والثقافة والعلاقات السائدة. ولذلك، تزمن الأزمات وتتوالى المضاعفات في ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية" (ص15).

وفي سياق ذاته، يرى بدران (2005) في ورقة علمية له بعنوان: النظام التربوي العربي: من دائرة الاغتراب إلى الحداثة والتطوير" أن أكبر تحذ يواجه النظام التربوي العربي يتمثل في أن" السياسات التربوية وضعت وأديرت من قبل فئات وأيديولوجيات مغلقة وجامدة قامت بصد موجات التطوير والتحديث التربوي باسم التحصين ضد الثقافات الأخرى؛ حيث أصيبت النظام التربوي العربي بالجمود والعجز

عن مواكبة مستجدات العصر وعن الإستجابة لمتطلبات وتحدياته. فهو نظام يعيش في عالم ضيق تحاصره التقاليد، ويهرب من واقع التحديث والتطوير ويقاومه، ويقوم على منهجه سلطوية تعتمد أسس الحفظ والتلقين في التدريس وعلى مخاطبة الذاكرة وليس العقل" (ص4).

ويتابع بدوران حديثه بالقول" على الرغم من العبارات التاريخية الصادقة لمفكري الأمة لكسر طوق الجمود الرتيب- في النظام التربوي العربي- والانطلاق نحو الإصلاح فيه إلا أنها لم تسجل حظورا في إحداث التغيير والتحديث المطلوب في نسق ومفاهيم التربية والتعليم، وفي النظام التربوي العربي لإحداث حركة نهضوية تربوية تخلص الأمة من ذيول التخلف وتنقلها إلى آفاق حضارية جديدة (ص 6).

أما وطفة(2004) فيرى " أن المصلحين العرب في مجال التربية والتعليم مازالوا ينظرون إلى الإصلاح التربوي على انه مجرد إصلاح الكتب والدروس والبناء المخابر، الإصلاح الحقيقي المطلوب في غمرة التحولات التاريخية الجدية فهو تعامل حضاري مع متطلبات المرحلة التاريخية وسعى إلى بناء قدرة الشعوب العربة على الدخول في التنافس الحضاري الثقافي مع الأم/ والشعوب فتدفق الإصلاحات التربوية في الوطن العربي لم يؤت أكله، وقاصرا وشكليا، ولم يستطير أن يدخل في عمق القضية الضارية الثقافية للوجود الحضاري.

تأسيسا على هذه الاقتباسات، يكتفي الباحثان بإثارة التساؤل حول قدرة مشروعات الإصلاح المدرسية على إخراج النظم التربوية العربية من دائرة الإشتراب الفكري أو الثقافي إلى واقع التطوير والحداثة. إذ رب من قائل أن المردود الحقيقي لمشروعات الإصلاح المدرسية العربية لن يكون في أفضل حالاته أكثر من تغييرات شكلية في بينة المدرسة الطبيعية وموجداتها البعيدة كل البعد او الغريبة عن المضامين الثقافية والأخلاقية والعقلانية للعناصر الإنسانية التي تتفاعل معها تخطيطا وإدارة وتعليما وتعلما. فهل يكتفي النظام التربوي العربي بمحاولات إصلاح مدرسي قائمة على ترميم أجزائه المتصدعة، أم أنه بحاجة إلى إعادة بناء جذرية شاملة تبدأ بإصلاح نفس الفرد وتزكيتها لتربيته "كإنسان الأمة" يدفعه الوزاع الداخلي للعمل والمشاركة في تأدية الوجبات وتحمل المسؤوليات في جميع الجوانب الحياتية حتى تصلح الأمة ويتغير حالها تحقيقا لقول الله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد:11)، ولقوله تعالى: (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) (الأنفال: 53).

الخاتمـة:

لأن الإنسان ينبغي أن يكون دائما الأعلى بين ما تملكه أية أمة من مقدرات وموارد، فإن إصلاح المدرسة كأداة تغيير اجتماعية يقتضي إصلاح العناصر الإنسانية فيها، حتى ترفد المدرسة المجتمع بإنسان صالح. إذ عندما يكون "إنسان الأمة" صالحا،

فلا بد أن يكون مصلحا لنفسه وللبوثقة الاجتماعية التي ينصهر فيها وبالتالي لمجتمعه وأمته. وعليه فإن الإصلاح الحقيقي ينبغي أن ينطلق من القناعات التالية:

- لا يكتمل واقع الإصلاح المدرسي كمشروع إلا إذا كانت عناصره الإنسانية القائمة عليه والمنخرطة به صالحة ومصلحة تسخر الوسائل التعليمية المناسبة لتحقيق غايات نظام التربوي النبيلة.

- "ليس كل قديم سيء وليس كل جديد جيد" بإنزال هذه المقولة على واقع مشروعات الإصلاح المدرسي المعاصرة من حيث محاورها الرئيسية ودعائمها الأساسية التي تقوم على الدعوة إلى حوسبة التعليم أو أتمتته (Computerization or automation of instruction) ، قد يبرز تساؤل حول جدوى هذه المشروعات الإصلاحية إذا لم تحقق التوازن بين الأصالة والمعاصرة. ما فائدة تزويد الغرف الصفية بأحداث ما توصلت إليه التكنولوجيا المعاصرة من وسائل وتقنيات تعليمية محوسبة (Hi Tech) لدرجة أصبح معها يشار إلى الغرف الصفية بالغرف الذكية (Smart Rooms)، إذا لم يصاحب ذلك نضج وسمو في مدارك وأخلاق ووجدانيات العناصر الإنسانية المستخدمة لتلك التكنولوجيا.

- إن مسألة الإصلاح التربوي ذات خصوصية ثقافية (Cultural Specific)، لأن لكل نظام تربويي فلسفته وتراثه المادي والمعنوي وغاياته وتحدياته الخاصة به، ووسائله المناسبة التي يوظفها ذلك النظام من أجل تحقيق تلك الغايات ومواجهة تلك التحديات. وما يصلح الواقع التربوي في مجتمع ما قد لا يفيد في إصلاح الواقع التربوي في مجتمع آخر. وهكذا، قد يكون من غير المعقول الحديث عن الإصلاح التربوي كمشروع ذي صبغة عولمية بسبب التابين القائم بين النظم التربوية في بيئات وفلسفات وغايات وتحديات هذه النظم ووسائلها. ولكن على الرغم من هذا التباين بين هذه النظم، فأنها تشترك جميعها في التأكيد على أن الإصلاح المدرسي يتحقق إلى درجة كبيرة إذا كانت العناصر الإنسانية القائمة عليه والمنخرطة به صالحة متعاونة منسجمة ومتحابة في بينها.

- التأكيد على أن الإصلاح المدرسي الحقيقي مرتبط بشكل قوي بطبيعة العلاقات السائدة بين العناصر الإنسانية القائمة على النظام المدرسي والمنخرطة به؛ فهل هم زملاء متحابون (Becoming Colleagues) في بوثقة المدرسة، أم خصوم مختلفون تربطهم علاقات التناقض والتنافس غير النبيل.

- باختصار، يتحقق نجاح مشروعات إصلاح النظام المدرسي بشكل كبير إذا كانت دوافعه نابعة من الواقع الثقافي الاجتماعي الذي تمثله المدرسة كمؤسسة إنسانية إجتماعية هدفها أحداث التغيرات المرغوبة في أفئدة أفراده ووجدانهم من خلال صقل معارفهم ومعاراتهم وقيمهم ليكونوا صالحين ومصلحين لمجتمعهم الحر المتكامل البنيان كما رآه رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: **مثل** المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الحسد بالحمى والسهر.

المراجـع:

1- القران الكريم
2- الحديث الشريف
3- بدران، عدنان (2005). النظام التربوي العربي: من دائرة الاغتراف إلى الحداثة والتطوير. مجلة اليرموك، 87، 4 -10.
4- الحارثي، إبراهيم (2003 نحو إصلاح المدرسة في القرن الحادي والعشرين. الرياض: مكتبة السنقري.
5- الخطيب، أحمد والخطيب رداح (2006) المدرسة المجتمعية. عمان: عالم الكتب الحديث.
6- سنقر، صالحة (2005 المدرسة المجتمعية. عمان: دار الفكر.
7- بوفلجة، غيات (1994) المدرسة كتنظيم. دراسات، الجاممعة الأردنية، 21(1)، 148 – 157.
8- الكيلاني، ماجد (2005) التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر. دبي: دار القلم للنشر والتوزيع.
9- مرسى، محمد (1992). الإصلاح والتجديد التربوي في العصر الحديث. القاهرة: عالم الكتب.
10- وطفة، علي اسعد (2004) التربية العربية وإشكالية الحداثة. جريدة الأسبوع الأدبي، 906.

- Barth, R.S. (1990). Improving schools from within: Teachers, parents and principals can make the difference. San Francisco: Jossey-Bass.
- Bloom B.S. 51956- Taxonomy of Educational objectives handbook1. cognitive.
- Cooperm R. (1999). Success for all Schoolism one at a time. Principal, 78, 28-32
- Dewey, J. (1916) Democracy and Education. An introduction to the philosophy of education. New York: Free Press.Domain, Longman, London
- Epstein, J.L. & Jansorn, N.R.(2004) School, family, and community partnerships link the plan. Education Digest, 69(6),19-23
- Hess, G.A., (1991). School Restructuring Chicago style. Newbury Park, C A: Corvin
- Silverman C.E. 51970- Crisis in the classroom;. New York: Random House.

Wagner, T.(2001) Leadership for Learning: An Action Theory of School Change. Phi Delta Kappan, 82(5),378-383.